الحداثة ومنظومة الاستعمار الاستيطاني تفكيك بُنيوي للإطار العام

نديم مُسلّم

باحث دكتوراه - تخصص علاقات دولية

جامعة الجزائر 3

الملخص:

شهدت المجتمعات الإنسانية في القرون الخمسة السابقة ظهور وترسّخ النظام الرأسمالي ، كبناء اقتصادي ضخم ومتشعب مترسخا عام بعد عام ، ومرسخا معه منظومات سياسية وثقافية ومعرفية خاصة به . وكانت الحداثة هي الإطار الجامع لمنظومات البناء الفوقي المتفرعة عن النظام الرأسمالي ، حيث تدعم في مجالاتها خاصية التوسع الاستثماري الاقتصادي للرأسمالية وتـ عتبر قارة أوروبا مهد النظام الرأسمالي ، فيها نشأ ومنها توسع خارجا ، معتمدا كرأس حربة في منظومة توسعه الربحية في العالم بأسره خارج قارة أوروبا على منظومة الاستعمار الاستيطاني ، والتي أسست بدورها لمنظومة الهيمنة المعاصرة .

تم تبني منظومة الحداثة في أوروبا بعد انهيار عصر الإقطاع ، كإطار جامع للبناءات والتشكيلات الاجتماعية والثقافية والعلمية فيها ، وهكذا كان للحداثة والاستعمار الاستيطاني علاقات بنيوية بينية وطيدة بعض منذ تشكلهما ، كونهما يعملان وظيفيا معا في خدمة نفس المشروع الذي أوجدهما أصلا ، علاقات تهدف لتثبيت أركان أنماط الإنتاج الرأسمالي المتراكمة ، من الماركنتلية التجارية ثم الرأسمالية الصناعية ، فالرأسمالية المالية تباعا ، ضمن خاصية التوسع الملازمة لهذه الأنماط في العصر الحديث . فعند إجراء تفكيك بنيوي للإطار العام الشامل للحداثة والاستعمار الاستيطاني ، يتضح أنهما منظومتين وظيفتين لا غاية في حد في ذاتهما ، وأن الأهداف الخاصة بهما يتم رسمها في قلب الفواعل المهيمنة على النظام الرأسمالي ووفق غاياته الربحية التوسعية ، وأيُّ عكس لفهم هذه النقطة الجوهرية (كما يقع فيه الكثير ، من اعتبار الحداثة على وجه الخصوص هدفا قائما بذاته) يؤدي حتما إلى نتائج خاطئة ومقلوبة رأسا على عقب .

Abstract :

Human societies have seen the emergence in the previous five centuries an entrenched capitalist system, such as a huge economic structure and entrenched year after year, and enhancing a political, cultural and knowledge systems of its own. The modernity is the overarching framework for systems superstructure is a subsidiary of the capitalist system, which supports investment in the fields of economic expansion of capitalism property. The continent of Europe, the cradle of the capitalist system, which grew out of it and expanded, depending spearhead its expansion in profitability in the whole world outside the continent of Europe the system colonial settlement system, which established in its turn the system of contemporary dominance.

The adoption of modern system in Europe after the collapse of the era of feudalism, as a framework for its social, cultural and scientific structures, and so was the recent settlement and colonization structural relationships close in its shaping, since its working and functioning in the same project, which was originally its source, relations aims to install pillars patterns accumulated capitalist production, the mercenary of commercial and industrial capitalism, financial capitalism, respectively, within the expansion inherent in these patterns in the modern era property. When action to dismantle structural framework Comprehensive General of the modern settlement and colonialism, it is clear they have two systems and two not very much in themselves, and that their own objectives are drawn in the heart of actors function dominant capitalist system and in accordance with the objectives of profitability expansion, and any reversal to understand this fundamental point (as it is located many, of modernity considered particularly target freestanding) inevitably leads to wrong and contradictory results.

مقدمة :

إن منظومة الاستعمار الاستيطاني التي أرستها باستلزام الصفات الجوهرية [1] ، متطلبات تطور النظام الرأسمالي في القسم الغربي من قارة أوروبا ، منذ منتصف القرن الخامس عشر للميلاد وصاعدا ، اعتمدت في سعيها الحثيث لتوفير الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لنجاح هذا الإرساء وتطويره على منهج علمي دقيق [2] ، تماشيا مع روح عصر النهضة الأوروبية ، القاضية بتفعيل العقل الإنساني إلى أقصى حدوده الممكنة ، ليحصل من الطبيعة على القدر الأكبر من المنفعة [3]. لذلك منذ أن تشكل النظام الاقتصادي الرأسمالي ، وجد معه بشكل متزامن ومتلازم ، إطار فكري وثقافي ومعرفي جديد كليا في القارة الأوروبية ، حيث أنه لا يمكن تحليل مفهوم الاستعمار الاستيطاني والإلمام بآليات تفعيله على أرض الواقع ، من دون تحديد هذا الإطار الذي دفع بالبناء المعرفي الكهنوتي للقرون الوسطى قدما ، ليتبدل ويبدل معه صفة العصر و اسمه ، بحيث دخلت معه القارة الأوروبية للعصر الحديث. فما هي الحداثة وما هي روابط العلاقات بينها وبين الاستعمار الاستيطاني ، وما هي الدوافع البنيوية العميقة لكليهما .

التأريخ السليم لمفهوم الحداثة ، يتطلب امتلاك القدرة على تحديد موقعها من نمط الإنتاج الرأسمالي ، لذلك لابد من العودة لنظرية الحالات الثلاث للمفكر الفرنسي " أوغست كونت auguste comte " ، مؤسس المدرسة الوضعية . ففحوى هذه النظرية يؤكد أن الفكر البشري مر خلال مسيرته التاريخية الطويلة بثلاث مراحل من التطور ، هي كالآتي[4]:

- **الحالة اللاهوتية** : حيث كان الفكر البشري يعمل على أن يفسر الظواهر الطبيعية والإنسانية تفسيرا غيبيا ، سواء ضمن إطار الأساطير أو المعتقدات الوثنية المختلفة ، وكذلك ضمن الإطار الديني[5] بحسب وصفه .

- **الحالة الميتافيزيقية** : وفيها كان الفكر البشري يعتمد على العقل المجرد في تشييد شتى الصروح الفكرية والمنطقية ، والنظريات الفلسفية ، بواسطة التأمل والاستنباط والاستدلال النظري[6] ، و المنطق الصوري .

- **الحالة الوضعية** : حيث اعتمد الفكر البشري على العلم في فهم وتفسير الظواهر الطبيعية والإنسانية ، من خلال الاعتماد على حواس الإنسان المدعمة بوسائل القياس العلمية المبتكرة المؤدية إلى قوانين مصاغة في نظريات محددة ، وهي الحالة الحديثة[7] .

الحداثة إذن نشأت بالتحديد في قلب الحالة الثالثة ، عندما تخلى الفكر البشري عن الإرث الميتافيزيقي[8] ، وتبنى نظرة جديدة للحياة ومفاعيلها ، عنوانها الأكبر " البشر يصنعون تاريخهم بنفسهم " [9] ، وبالتالي فالعقل البشري قادر على حل جميع المشاكل ، و أنه لا وجود لأي مشاكل حقيقية إلا تلك

التي يستطيع العلم أن يحلها ، وهذه هي السمة المميزة للمذهب العقلي الكبير لسبينوزا spinoza ، وجدل هيغل hegel[10] ومنهج فرانسيس بيكون bacon التجريبي [11]، الهولندي " هوغو دو غروت hugo de groot1583 -1645م" زعيم مدرسة القانون الطبيعي ورائد القانون الدولي في العصر الحديث ، من أهم مرسخي الحداثة على الصعيد التشريعي في القارة الأوروبية ، فتم منه تحديد مبدأين أساسيين للتشريع : أ- التمييز بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي[12] ، فالأول بحسب وصفه أزلي وخالد لأن مصدره الطبيعة ، ولا علاقة له بوجود الدولة من عدم وجودها ، أما الثاني فهو من وضع الإنسان ويختلف من حيز مكاني لأخر ومن عصر لأخر ضمن الدولة الواحدة [13] ، فتجب أن تكون القوانين الطبيعية المثل الأعلى لواضعي القوانين الوضعية ، لأنها تمثل الثبات والاستمرارية عبر الزمن . ب- المبدأ الثاني وهو الأهم ، القول بوجود قانون طبيعي نابع من كينونة الإنسان في حد ذاتها [14]، وسابق على كل القوانين الوضعية وأسمى منها ، يستلزم القول بوجود جملة حقوق طبيعية لهذا الإنسان وهي ملازمة للطبيعة البشرية ، ثابتة لهذه الطبيعة قبل تكوين المجتمعات[15] ، فهي مكفولة بغض النظر عن كينونته مواطنا في دولة بعينها . وهكذا دخلت أوروبا عصر الحداثة حاصرة منابع المعرفة البشرية في العلم فقط ، وأعطت لهذا الأخير موقعا ساميا ، فأصبح مؤسسة قائمة بذاتها لها مكانة رفيعة بين المواطنين والنخب[16] ، ويستثمر فيها رؤوس أموال ضخمة .

الحداثة إذن هي إطار عميق جدا ، جرى ترسيخه في أوروبا بعد قرون طويلة من تسلط المنظور الكهنوتي البابوي[17] الذي كان مفروضا على أبناء القارة ، فكانت الحداثة أهم ناظم للبناء الثقافي الجديد في القارة ، والإطار المحوري في البناء الفوقي في نمط الإنتاج الرأسمالي[18] ، وتم إخضاع جميع المنظومات المـ فرزة في العصر الحديث ، المستحدثة لخدمة مصالح الفواعل المهيمنة على نمط الإنتاج ، والتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية في القارة (وأهم هذه المستحدثات منظومة الاستعمار الاستيطاني) ، لضوابط الفكر الحداثي العقلاني الواعي ، و المنتظم مصلحيا لخدمة هذه الفواعل .

وكان للمبادئ الأساسية الثلاث للحداثة ارتباط عضوي بالمنظومة الاستعمارية الاستيطانية ، هذه المبادئ المتمثلة فيما يلي [19] :

1- السيطرة على الإنسان ، وإخضاعه لمتطلبات الحداثة ، وهذا يعني ضمنا صقل شخصية الإنسان في ظروف التنشئة المجتمعية ، وضمان تسخيره كليا في قلب أهداف الحداثة ، وتم تبني سياسات هندسية اجتماعية جديدة للأفراد والجماعات ، وتم الإطاحة بالكثير من القيم الإنسانية المتواترة منذ القدم في سبيل توطيد هذا الهدف .

2- السيطرة التامة على الطبيعة وإخضاعها لهيمنة الإنسان ، لذلك يجب تكريس الجهود دائما لفهم الطبيعة وترويضها لخدمة الإنسان ، وهذا ما لازمه عند التطبيق حدوث تغير جذري في علاقات معظم المجتمعات الإنسانية بالطبيعة ، كون الإرث التقليدي للمجتمعات الإنسانية قبل عصر

الرأسمالية ، يتمثل في اعتبار الإنسان واقع تحت سيادة وجبروت الطبيعة ، على عكس تماما ما قامت به الحداثة ، حيث تم إخضاع الطبيعة دون أي وازع ليتم إعادة ترتيبها حسب متطلبات نمط الإنتاج ، فأصبح من المعتاد أن تغير مجاري الأنهر ، وتزال الجبال وتقطع الغابات ، وتفنى أصناف حيوانية بأسرها .

3- السيطرة على المعرفة ، حيث أن الحداثة تعطي اعتقاد منقطع النظير بمقدرة الإنسان على خلق وتراكم المعرفة دون انقطاع[20] ، وتؤكد على ضرورة إزاحة كل المعيقات من وجه هذا التراكم ، وهكذا تم قولبة العلم في مؤسسات عملاقة قائمة بذاتها لها كينونة معتبرة ، كرافد أساسي يضمن ديمومة مسيرة الحداثة .

قبل الخوض في شكل العلاقة بين الحداثة والاستعمار الاستيطاني ، من المهم تحديد ماهية النظرية التحديثية المتكاملة التي صاغها عالم الاجتماع والاقتصاد الألماني " ماكس فيبر max weber 1864-1920م "[21]، والتي أطلق عليها " نظرية التحديث والعقلانية "[22]، حيث أكد فيها على وجود طريق واحد على جميع شعوب الأرض أن تسلكه إذا أرادت التقدم ، وهو نفس الطريق الذي سلكته أوروبا ، فدعى إلى تبني الليبرالية السياسية[23]القائمة على الديمقراطية ، وأسلوب الحكم النيابي ، وأكد على صوابية ووحدانية النهج الاقتصادي الرأسمالي القائم على الملكية الفردية ، وتحرير الأسواق نهائيا من أي رقابة حكومية ، متابعا ما بدأه " آدم سميث adam smith " ، مؤكدا في نظريته على تبني المنهجية العلمية بشكل قاطع وحصري في تحصيل معارف وثقافة متحررة نهائيا من الأوهام والغيبيات ، ليستفاد منها في رسم سياسات الدول [24]، لتحصيل المنفعة القصوى لجميع أفراد المجتمع ، بمساوية بينهم فيما أسماه " النهج العلماني " ، من هذه النقطة يمكننا البدء بالتصدي تحليلا للعلاقات البينية بين الحداثة والاستعمار الاستيطاني الأوروبي في العصر الحديث .

عند إجراء تفكيك بنيوي للحداثة والاستعمار الاستيطاني ، يتبين أن كلا الظاهرتين تتصفان بدور الوسيلة لا الغاية ، على العكس تماما مما يوحي به غالبية من تصدوا لدراستها سواء من كتاب ومنظري العالم المصنع أو العالم المتخلف ، وعلى الأخص منظري هذا الأخير ، الذين منذ ستينيات القرن العشرين[25] وحتى الآن ، يضعون في نظريات للتحديث معتبرينها أقصى أهداف يمكن أن تبلغها مجتمعاتهم للوصول إلى نمط دول الرفاه التي تعيش فيها شعوب العالم الأول . والواقع في حقيقة الأمر أن الحداثة وهي الإطار الفكري والثقافي الناظم للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية في أوروبا ، والاستعمار الاستيطاني الذي هو رأس حربة عملية تكريس الطابع التوسعي لنمط الإنتاج الرأسمالي وتدويله في جميع أرجاء العالم ، ما هما إلا وسيلتين لا غاية ، ولم يكونا كذلك أبدا طوال الخمس قرون السابقة ، والأحداث التاريخية أثبتت ذلك بشكل قاطع ، فالشره نحو الربح والدافعية نحو الاستئثار بفوائض القيمة وخيرات اقتصاديات المركز الأوروبي وباقي دول العالم ، هي الأسباب و الغاية النهائية المتوخاة من

تكريس الحداثة والاستعمار الاستيطاني[26] وليس العكس ، فلم تكن أبدا (ولا ينبغي لها أن تكون ، بفعل القوانين البنيوية الناظمة لنمط الإنتاج الرأسمالي) الحداثة بمعزل عن تطور التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية في أوروبا الرأسمالية ، بل كانت دائما تواكبها مزيلة العوائق في البناء الفوقي من أمامها ، وكان الاستعمار الاستيطاني رأس حربة تدويل سيطرة رأس المال على العالم بأسره ، ومساهم أساسي في تخفيف الاحتقانات الطبقية في داخل القارة ، من خلال إخراج ملايين الفقراء من القارة وإرسالهم إلى ما وراء البحار.

ومنه فإن بنيوية التوسع في أنماط الإنتاج الرأسمالي المتتابعة (الماركنتلية والصناعية والمالية) ، هي التي ولدت وشكلت وطورت الاستعمار الاستيطاني ، وأقامت الروابط الأساسية بينه وبين الحداثة ، فكانت سمة التوسع الجوهرية في الرأسمالية هي المسؤولة عن هذه الدافعية القوية لترسيخ كلا من الحداثة والاستعمار الاستيطاني ، ففي السوق المفتوح لا يمكن للرأسمالي أن يحافظ على رأسماله ويجعله ينمو ويحقق أرباحا ، إلا من خلال التوسع في الاستثمار كما وكيفا [27]، وإلا فالنتيجة الحتمية أنه سيداس في حلبة التنافس ولن يبقى رأسماليا إذا ما تخلف عن التوسع .

،يلاحظ أن التوسع في مرحلة الرأسمالية الصناعية هو أعمق وأشد وتيرة بمراحل من فترة الرأسمالية الماركنتلية ، ومن أهم تجلياته كان التوسع الاستثماري في ميدان الطاقة والتعدين ووسائل النقل والمنتجات الكيميائية ، وإدخال منتجات العلوم التطبيقية في المجالات الصناعية كلها [28] ، فعملت المؤسسات والشركات الصناعية في أوروبا على تأسيس صرح علمي ضخم ملحق بها ، لم يسبق له مثيل في الغابر من تاريخ البشر ، دوره الأساسي إعادة إنتاج القدرة التقنية على التوسع الرأسمالي بالدرجة الأولى ، وليس تحقيق فائدة وخير البشرية كما يدعي الكثير من كتاب ومفكري العالم الأول والمتأثرين بهم في العالم الثالث ، وما تدمير الطبيعة والمحيط الايكولوجي ، ومنظومة القيم السامية للتراث الإنساني إلا شواهد من قدرة التوسع الرأسمالي ، على إزاحة أي شيء يعيق عملية الربح والاستثمار ، وظاهرتي الحداثة والاستعمار الاستيطاني ما هما إلا وسيطين وظيفيين لتثبيت هذا التوسع.

إن عملية تصدير فائض السكان من الطبقات المعدمة في القارة الأوروبية إلى العالم الجديد وبعض مناطق أسيا وإفريقيا ، وتفعيلهم ضمن الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية فيما وراء البحار ، هي من صميم عقلانية الحداثة ، التي تؤكد رسميا على تحكم الإنسان الكامل بالطبيعة ، غير أن العبارة الأصدق هي " تحكم رأس المال الكامل بالإنسان والطبيعة " ، وإعادة توزيعه جغرافيا ليكون أنفع ما يكون للاستثمار الربحي [29] . فعلاوة على التخلص من فواعل احتجاج ثوري محتملة من القارة ، تم إيجاد شروط موضوعية لتقليل تكاليف العمليات الحربية والتجارية ، من خلال تفعيل استغلال القدرات الذاتية للمناطق المستعمرة ، لتخفيف التكاليف[30] المقتطعة من ميزانيات الدولة الأم وشركاتها

، وهذا ما يزيد من الأرباح . فالمستعمرة الهولندية في منطقة الكاب التي أسست عام 1652م في جنوب إفريقيا كانت نقطة ارتكاز لوجيستي محورية ، لمجموع الأساطيل الحربية والتجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية ، فكانت تعمل على إمدادها بما يلزمها من مؤن ونقطة استراحة ، وتعمل في نفس الوقت على مراقبة نشاط الدول والشركات المنافسة للهولنديين ، كذلك الأمر مع مستوطنة الرأس الأخضر البرتغالية في القارة الإفريقية ، ومستوطنة غوادالوب الفرنسية في الأنتيل ، ... وغيرهم. فالمستوطنين من حيث آليات الا ستيلاء على خيرات الأراضي والشعوب المستعمرة، يعتبروا وسيط وظيفي فعال وضروري في كثير من الحالات ، خاصة إذا تمتعت تلك المناطق بمؤهلات زراعية ومعادن متنوعة ومساحات شاسعة ، كما هي حالة البرازيل والأرجنتين والجزائر على سبيل المثال لا الحصر ، فالمستوطنون هذ ا،يشكلون عماد آلية الاستغلال الاستعماري اقتصاديا ، ويقتصر دور الجيش في البداية على تمهيد الأرضية لاستيطانهم وحمايتهم ، ثم مع الزمن يتولون هم فيما بينهم مهمة توليد قسم هام من منظومة عيشهم ، وإدارة شؤونهم الحياتية ، علاوة على تحولهم التدريجي لنقطة تموين وردف للجيش الاستعماري بالرجال والمؤن[31]، فضلا عن مهمتهم الأساسية المطلوبة منهم أصلا ، وهي توليدهم للفوائد المادية المباشرة والغير مباشرة لرأسمالية المركز الامبريالي في أوروبا (دخلت الولايات المتحدة الأمريكية على خط المستفيدين من تفعيل هذه الظاهرة وتوسيعها بعد انفصالها عن بريطانيا عام 1776م ، وهي نفسها وليدة لهذه الظاهرة) .

في الواقع ، إن عملية إعادة التوزيع الديموغرافي من البلدان الرأسمالية الأم في أوروبا نحو المستعمرات الاستيطانية وراء البحار ، كانت تسير بشكل ،ممنهج ومدروس ، ولا تتسم أبدا بالاعتباط والعشـ ـوائية ، بل هي عملية منظمة إجرائياومنتظمة زمانيا، حتى العنصر البشري المسموح له بالمغادرة وإعادة التوطن في الخارج ، تم تحديده بحسب حاجات التوسع الرأسمالي الربحية ، وعملية تخفيف الاحتقانات الطبقية في الأوطان الأم ، وهكذا تم بلورة ثنائية الطرد والجذب في الجانب البشري للظاهرة الاستيطانية ، وكون أن المناطق الأكثر تطورا [32]من حيث التراكم الرأسمالي في القارة الأوروبية عرفت حركة الإصلاح الديني (وهي بدورها ذات خلفية طبقية عميقة ، حيث أنها انتشرت في أوساط الطبقات الفقيرة والبرجوازيات المقموعة من كهنوت روما) ، في ألمانيا والأراضي المنخفضة وبوهيميا وسويسرا وشمال فرنسا وانجلترا ، فقد تم فتح باب الهجرة والاستيطان فيما وراء البحار للطوائف الإصلاحية للتخفيف من الاحتقانات الداخلية ، وإعادة تفعيلهم في مكان انسب لخدمة استثمارات التوسع الرأسمالي [33] ، فتم تبني صيغتي الاستعمار الاستيطاني الاستغلالي بداية ، ثم لاحقا ظهر نمط الاستعمار الاستيطاني الاحلالي .

وهكذا لم تكن ظاهرة تصدير فائض السكان من أوروبا نحو العالم الجديد وباقي مستعمرات إفريقيا واسيا ، إلا المرحلة الأولى من ثنائية الهجرة والاستيطان أو الطرد والجذب ، الأمر الذي نتج عنه

تغير المعالم الديموغرافية لأقسام شاسعة من العالم في العصر الحديث ، حيث تم " أوربة " قسم كبير من العالم ثقافيا واثنيا .فعلى سبيل المثال اسبانيا غادرها في القرن السادس عشر 3 ملايين مهاجر ، قطعوا المحيط للاستقرار في القارة الأمريكية ، ،مخلفين ورائهم خللا أضعف اسبانيا ديموغرافيا ، وأخل بتوازنها العام مع جيرانها الأوروبيين ، أما الجزر البريطانية فكانت المصدر الأكبر للهجرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث هاجر منها في تلك الفترة 17 مليون إنسان [34] ، استقر غالبيتهم العظمى في قارة أمريكا الشمالية . الولايات المتحدة الأمريكية لوحدها استقر فيها في الفترة 1820-1961م ، ما يناهز 42 مليون [35] مهاجر استوطنوا فيها وحصلوا على جنسيتها ، وهي بالتالي الإقليم والدولة الأكثر استقبالا للمهاجرين المستوطنين في التاريخ الإنساني الحديث، كما أن البرازيل استقبلت أكثر 1.3 مليون [36] مهاجر استوطنوا فيها في الفترة 1888-1898 م ، ومن البلدان المصدرة لظاهرة الهجرة الاستيطانية في القرن التاسع عشر نجد ألمانيا ، حيث غادرها في الفترة 1878-1892م عدد،يقدر بسبعة ملايين مهاجر ، وكذلك الأمر مع ايطاليا حيث هاجر منها منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين حوالي عشرة ملايين مهاجر استوطنوا العالم الجديد ، 42 ٪ منهم استقروا في الولايات المتحدة الأمريكية ، و 21 ٪ استوطنوا البرازيل و 20 ٪ في الأرجنتين ، والباقي في شتى دول الأمريكيتين [37]. ويقدر المتخصصون عدد المهاجرين من قارة أوروبا الذين استوطنوا الأمريكيتين و الأوقيانوسية وجنوب إفريقيا في الفترة 1800-1930م بعدد يتراوح بين 62-64 مليون إنسان [38] استقروا بشكل دائم فيها ، وتركوا أوطانهم الأصلية .

،يلاحظ هنا أنه ليس من قبيل المصادفة أن أكثر الدول تصديرا للمهاجرين ، هي أكثر مناطق أوروبا تقدما وتطورا من الناحية الرأسمالية ، الأمران ،متلازمان . فالهجرات الاستيطانية الجماعية الكبرى كان مصدرها الدولة الرأسمالية القومية ، وكانت تتم تحت غطاء من التخطيط المباشر أو من خلال تسهيلات مدروسة من قبل مؤسسات وهيئات رسمية أو شركات تجارية متخصصة ، تتبع دول بعينها ، وحتى عندما كانت هناك حالات الهجرة الفردية تتزايد فإنه ما كان لها إلا أن تخضع للأطر الكبرى التي رسمتها سياسات الجهات سالفة الذكر ، فعلى سبيل المثال حالات الهجرة الفردية من قبل الأوروبيين للاستيطان في الجزائر [39] زمن الاستعمار الفرنسي ، حيث كان المهاجر المعدم الفقير القادم بحثا عن حياة أفضل في هذه البلاد يجد نفسه مرغما على الانخراط في النسق الاستيطاني الكلي الذي رسمته السلطات الفرنسية للحالة في الجزائر[40] ، كونها جزء من حركة توسع رأسمالي استعماري لا ،يقيم وزنا للسكان الأصليين إلا بالقدر الذي يستفيد منهم لتحقيق الربح ، وإلا سيكون مصيرهم القتل والهلاك جوعا ، بعد أن كانت بلادهم ،مصدر أساسي للقمح ، وبالتالي كان مطلوب من المهاجر الأوروبي الفقير المعدم القادم للاستيطان في الجزائر في هذه الحالة أن يتحول إلى قامع ، بعد أن كان مقموعا ومسحوق طبقيا في وطنه ، وهنا يبرز دور الحداثة في قولبة الإنسان وإعادة توظيفه مكانيا بحسب حاجيات نمط الإنتاج الرأسمالي السائد ، في تكامل أدوار متناغم مع النسق الاستعماري الاستيطاني .

عند مواصلة إجراء التفكيك البنيوي للإطار العام ، الذي يضم ويجمع روابط العلاقات البينية بين الحداثة ومنظومة الاستعمار الاستيطاني ، يبرز دور الشركات الرأسمالية التجارية ، والعقود الخاصة الممنوحة من قبل السلطات السياسية السيادية لها ، من أجل تثبيت ظاهرة الاستعمار الاستيطاني فيما وراء البحار . هنا يتضح بشكل جلي أن العامل الاقتصادي هو الجوهر الأساسي الدافع لهذه الظاهرة وأن الحداثة وما حملته من مجموعة قيم ثقافية ودينية جديدة ، ما هي إلا لبوس تبريري لهذا العامل الجوهري [41]، فقد كان لتدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد دور كبير في دفع التراكم الرأسمالي قدما[42] ، ولعبت هنا الأراضي المنخفضة دورا أساسيا ورائدا في إعادة تدوير التراكم الرأسمالي النقدي على مستوى القارة بأسرها [43]. فكان للشركات المساهمة المطروحة للاكتتاب العام والبنوك الإقراضية ، والسندات الحكومية ، وصولا للبورصات ، نصيب الأسد في العوامل التي أجهزت نهائيا على بقايا العصر الإقطاعي ، وأسست للعصر الرأسمالي الحديث ، وكان لأوروبا الأنجلو-ساكسونية السبق في ميدان التطور المالي ، مستفيدة من التاريخ الصيرفي العريق لمدينة أمستردام في هولندا ، والتي عملت كقلب أوروبا المالي النابض .

انجلترا وبحكم القرب الجغرافي والعلاقات الاقتصادية التاريخية والدينية ، كانت أكثر المتأثرين بالنموذج الرأسمالي المتولد حديثا في هولندا ، وساعدها في ذلك إقبال التجار والرأسماليين الهولنديين على شراء الأسهم في الشركات الانجليزية ، فما إن انصرم القرن السادس عشر حتى كان ثلث أسهم الشركات الانجليزية مملوك لمواطنين هولنديين [44]، وهكذا تضافرت ثلاثة عوامل جعلت من التراكم الرأسمالي يبلغ في انجلترا درجة عالية جدا ، فمن جهة كانت هناك عوائد القرصنة البحرية المنتظمة على التجارة الاسبانية ، إضافة إلى عائدات مانيفاكتورات الصوف المتعاظمة ، وهناك الاستثمارات الهولندية آنفة الذكر ، الأمر الذي جعل انجلترا الرسمية وانجلترا برأسماليها ، مركز ثقل كبير في أوروبا [45]، متجاوزة صغر مساحتها وقلة سكانها مقارنة مع غريمتها التقليدية فرنسا .

وأمام تطور المانيفاكتورات الانجليزية الخاصة بإنتاج الصوف ، وإتباع سياسة " التسييج " التي عملت على طرد مئات آلاف الفلاحين من أرضهم لتحويلها إلى مراعي للأغنام ، وزيادة معدلات النمو السكاني نتيجة تحسن الظروف الصحية العامة وتقلص الأمراض المعدية ، عانت انجلترا من تفاقم البطالة والفقر ، وانتشار الأحياء الهامشية بجانب المدن الكبرى ، وزاد من الطين بلة انتشار المذاهب الدينية الجديدة والمتطرفة بين أوساط هؤلاء الفقراء ، الأمر الذي دفع السلطات ومن ورائها مصالح الفواعل المهيمنة على الاقتصاد ، لاتخاذ إجراءات للتخفيف من الاحتقانات الداخلية ، وفتح باب الهجرة للعالم الجديد ، وإدماجها مع التوسع الاستعماري لا سيما مع الآفاق الواسعة التي سيفتحها هذا الاستيطان أمام أصحاب رؤوس الأموال الانجليز ، إذا ما تمكنوا من توظيف هذه الهجرة في توسيع مدى استثماراتهم الربحية إلى ما وراء المحيط (بالفعل أثبتت الوقائع اللاحقة أنهم تمكنوا من توظيفها

أفضل توظيف) وأمام النجاح الكبير والإقبال الواسع على الاستثمار في " شركة الهند الشرقية "[46] التي تم تأسيسها عام 1600م قرر الملك الانجليزي " جيمس الأول " إصدار مرسوم ملكي مؤرخ بتاريخ 1606/04/10م ، يقضي بتأسيس شركة مساهمة تحمل تسمية " شركة فرجينيا " ، تكون مختصة في تنظيم نقل المستوطنين بحرا ، وتنظيم عملية إعادة توطينهم في أمريكا الشمالية ، بين دائرتي عرض 34-45 درجة شمالا[47] ، وهي الشركة الوحيدة وقتها على مستوى القارة التي كان هدفها تنظيم عملية استيطانية كبرى بهذا الحجم ، وبديناميكية الانجليز المعروفة تم تقسيم الشركة إلى فرعين مستقلين ، الأول سمي " شركة بليموث " ، وجعلت تحت إدارتها المناطق الممتدة بين دائرتي عرض 38-45 درجة شمالا [48] ، والثاني سمي " شركة لندن " وجعلت تحت إدارتها المناطق الممتدة بين دائرتي عرض 34-41 درجة شمالا ، وكانت المنطقة الممتدة بين دائرتي عرض 38-41 درجة شمالا، تعتبر مركز الاستيطان الانجليزي ، وتتم فيه العمليات بالتنسيق بين الشركتين . وبالفعل أسست " شركة لندن " أول مستعمرة استيطانية انجليزية دائمة في أمريكا و سمتها " جيمس تاون " ، وبدأت أعمال اختطاطها رسميا بتاريخ 1607/05/14 م ، ولتعتبر هذا التاريخ تقليديا تاريخ تأسيس الأمة الأمريكية ، بحسب مصطلحات المؤرخين والسياسيين في الولايات المتحدة الأمريكية [49] .

الحقوق التي منحها الملك " جيمس الأول " لشركة فرجينيا تسترعي الانتباه ، فقد تم منحها حق سك النقود في أمريكا ، وسن القوانين وفرضها بالسلطة التنفيذية القاهرة ، كما تم اعتبار جميع المستوطنين من خلال هذه الشركة رعايا كاملي المواطنة الانجليزية واعتبار التاج الملكي الانجليزي المرجعية العليا التي تستند إليها الشركة ، واحتكرت هذه الشركة رسميا الاستيراد والتصدير مع مستوطنات أمريكا الشمالية ، ومنذ عام 1614م تم تسيير قوافل بحرية منتظمة من سواحل انجلترا إلى الشواطئ الشرقية للمستوطنات ، وفي عام 1616م إلغاء نظام المشاركة الجماعية في العمل وجرى تقسيم الأراضي على المزارعين ، وفي عام 1619م تم تخصيص رحلات بحرية محصورة بالفتيات الراغبات في الزواج ونقلهم للمستوطنات ، لإعطاء المستوطنين العزاب فرصة تكوين أسر والتكاثر الطبيعي ، وتعاقدت الشركة مع تجار هولنديين لاستجلاب عبيد من قارة إفريقيا للعمل في المزارع المؤسسة حديثا ، وبالفعل وصل أول مركب بحري يقل عبيدا لشواطئ المستعمرات الشرقية في شهر أغسطس 1619م ، وساهمت عمالة العبيد على التوسع الكبير في الاستعمار الفلاحي في القارة الأمريكية [50] .

هنا يسجل أن غالبية الرأسماليين من حملة الأسهم في شركة فرجينيا الاستعمارية الاستيطانية بفرعيها في لندن وبليموث ، كانوا من حملة الأسهم في الشركة التجارية الانجليزية الضخمة التي تأسست في عام 1600م وحملت اسم " شركة الهند الشرقية " ، والتي كانت تدعى اختصارا " شركة جوني " ، حيث اعتبروا أن مساهمتهم في جلب الفوائض من القارة الأمريكية من خلال شركة فرجينيا

، سيحقق لهم وفرة من السيولة النقدية تستخدم في الاتجار مع الهند والشرق الأقصى ، قطاع عمل "شركة جوني" الأساسي وبالفعل فقد حدث هذا الأمر ، فتم رفع رأسمال الشركة الأخيرة الذي كان في بدايته 80.000 جنيه إسترليني ذهبي ، إلى مبلغ 740.000 جنيه إسترليني ذهبي في عام 1657م [51] (وهذا مبلغ ضخم جدا بمعايير تلك الأيام) ، بمعنى أن عملية الاتجار مع الشرق بالنسبة للانجليز تم توليفها رأسماليا ، بروابط علاقات بينية متينة مع عملية الاستعمار الاستيطاني في أمريكا ، بحيث تدعم كل واحدة منهما الأخرى [52] .

في المحصلة وكنتيجة تكثيفية عند قراءة التاريخ من خواتيمه ، يمكن أن نقرن بروابط من العلاقة المادية ما بين الظاهرة الاستيطانية الأوروبية (الأمريكية بالتبعية) ، المصدرة للعالم في العصر الحديث ونظام الهيمنة الرأسمالية المترسخة اقتصاديا وثقافيا لغاية أيامنا الحالية ، ويمكن إيجاز هذه الروابط كما يلي :

1- الظاهرة الاستيطانية عملت على فتح فضاءات هامة وجديدة للتوسع الرأسمالي فيما وراء البحار ، وبالتالي ساهمت في عملية تعميم وتدويل وترسيخ أنماط الإنتاج الرأسمالية ، على مستوى العالم بأسره .

2- عند تتبع التوزيع الجغرافي للظاهرة الاستيطانية الأوروبية ، نلاحظ أنها أحاطت بالعالم القديم المكون علاوة على أوروبا من إفريقيا وآسيا ، بشكل دائري محيطي ابتداء من أمريكا الشمالية فاللاتينية ، إلى جزر الكناري والرأس الأخضر وأنغولا وجنوب إفريقيا وروديسيا وموزنبيق ، وكينيا والأوقيانوسية وجزر الباسيفيك وهونغ كونغ وماكاو ، الأمر الذي جعل أوروبا أشبه بالحوت العملاق الذي يبتلع في أحشائه أسيا وإفريقيا ، ويسجل أنه كان دائما هناك توافق ما بين استيطان الإنسان الأبيض مع التوسع الرأسمالي[53]، والاستيلاء على خيرات الأمم وفوائض قيمة عملها ، خاصة في الفضاء الأسيو- إفريقي لصالح رأسماليات الدول الاستعمارية .

3- من الناحية الثقافية ، يلاحظ أن التوسع الاستعماري الاستيطاني عمل على " أوربة العالم " ثقافيا ، بمعنى إعطائهم القيم البرجوازية و مفاهيمها المعنوية ونظرتها الفنية ، في شتى مجالات الحداثة في البناء الفوقي المتبنى في أوروبا ، وجرى إعادة تصديرها للعالم من خلال الاستعمار والظاهرة الاستيطانية ، وكان لبرجوازيات الفضاء الأفرو- أسيوي دور الوسيط الفعال في عملية "الأوربة " هذه ، من خلال وجود مصالح مادية مشتركة ، وهكذا جرى ما يشبه عملية تقديس للعقل الأوروبي وكل ما ينتج عنه [54] .

4- تشكل أمريكا الشمالية وجنوب إفريقيا و الأوقيانوسية ، نقاط ارتكاز أساسية ، مكملة ومتكاملة مع رأسمالية أوروبا حتى أيامنا الحالية ، في عملية نسج خيوط الاستلاب الاقتصادي الشديد الواقع على كاهل دول العالم الثالث المتخلفة ، حارما إياها من اكتساب قدرات بناء اقتصاديات وطنية

متمحورة حول ذاتها . ويمكن تتبع مواقف هذه الأطراف المشتركة تاريخيا من معاداة حركات التحرر الوطني (خف هذا نوعا ما وليس نهائيا بالنسبة لجنوب إفريقيا سياسيا وليس اقتصاديا بعد زوال نظام الأبارتهايد) وعمليات التأميم الوطنية ، وحق الشعوب في التحرر وتحقيق التنمية المستقلة ، لذلك فإن مفرزات الظاهرة الاستيطانية المتبلورة كدول في عصرنا الحالي ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، هي في صلب عملية تثبيت نظام الهيمنة الرأسمالية العالمية ، وإعادة إنتاج شروط تأبيدها زمانيا ما أمكن .

خاتمة :

يمكن الإضاءة على الكثير من الجوانب المعتمة في تاريخ البشرية في القرون الخمسة المنصرمة ، وتفسير الكثير من التوجهات في سياسات الدول وخاصة في الفضاء الأورو-أمريكي إذا ما تم وضع الأمور في نصابها ، والتمييز بدقة بين الغايات والوسائل ، فالحداثة والاستعمار الاستيطاني كانتا منظومتين وظيفيتين في خدمة التوسع الرأسمالي ، تحدد الأهداف فيهما وفق مصالحه ، بعكس ما اعتقد وظن غالبية نخب العالم الثالث وخاصة العربية منها ، التي تحاول من نصف قرن وضع مخططات تحديث وتفشل فيها دائما ، لأنه لا سياق رأسمالي حقيقي يرفدها ، يكون نابعا من داخل الوطن ليدعم هذه الحداثة ، فيبقى مدار أمرها على القشور السطحية من بناء التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية . لذا وجب إعادة النظر بجدية في نظرة النخب العربية من الحداثة ، مستعينين بتحليل ما سبق من تجارب أمم ككوريا الجنوبية مثلا ، التي تمكنت من التموقع في المنظومة الاقتصادية العالمية كفاعل حقيقي في مدة زمنية وجيزة ، مقارنة مع العرب الذين تزداد الهوة بينهم وبين هذه المنظومة علما بعد أخر ، كونهم يفصلون الظواهر الاقتصادية الاجتماعية عند التصدي لها عن سياقها التاريخي ، فتنقلب حينها المنظومات الوظيفية إلى غايات نهائية ، فالحداثة كإطار عام فوقي في أوروبا ما كان له ليوجد أو يستمر أبدا دون تغلغلها داخل أهداف النظام الرأسمالي ، وكذلك الأمر مع نظام الهيمنة العالمي الحالي الذي خف المنظومة الاستعمارية الاستيطانية الأوروبية ، بعد فترة التحرر الوطني في منتصف القرن العشرين .

الهوامش:

1- م.روزنتال و ب.يودين ، **الموسوعة الفلسفية** ، بيروت : دار الطليعة لطباعة والنشر ، 1974 ، ص.251-252.

2- لتوضيح أهمية نظم المعرفة العلمية في بنية الدولة الحديثة ، يكتبُ " جون ن.وارفيلد " ، مايلي :

" … Systems science must be powerful in bringing the state of an exploration to the point where the specific needs for specialized methods are identified and , if such methods are are not available , to specify the requirements for their development , in

order to be useful if the application of systems science reveals the need for further exploration in a biased domain , it serves that domain by posing a scientific challenge . if the application of systems science clarifies adequately how existing science can be applied , it serves the practitioner if ,in the application of systems science , the practitioner identifies weaknesses in the , methods drawn from systems science , the practitioner thereby offers insinghts to help develop systems science more fully " . go to : John N.warfield , **an introduction to systems science** , new jersey : world scientific publishing co.Ltd , 2006 , p.7.

3- في هذا الصدد يقول العالم الاسكتلندي " دافيد هيوم David hume 1711-1776م " ، ما يلي : " ... الطبيعة لا تبدي من القسوة إزاء أي نوع من الكائنات مثل ما تبديه إزاء الإنسان ، فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يلقى من فظاظة الطبيعة ما لا يلقا أي حيوان آخر يُشاركه في الحياة على سطح المعمورة . لقد زودته الطبيعة بقدر لا نهائي من الرغبات والاحتياجات في الوقت الذي زودته فيه بإمكانيات متواضعة لإشباع هذا الكم اللانهائي من الاحتياجات ، ومع هذا فإن الإنسان يستطيع من خلال الحياة الاجتماعية أن يرمم أوجه نقصه وعجزه ، وأن يرقى إلى مستوى الكائنات الأخرى بل وأن يتجاوز هذه الكائنات ويعلو عليها " . راجع : أنطوني دي كرسبني و كينيث مينوج ، **أعلام الفلسفة المعاصرة** ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1988 ، ص .106.

4- د.محمد عابد الجابري ، **قضايا في الفكر المعاصر** ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1997 ، ص .106.

5- المدرسة السكولائية المتأثرة بالقديس أوغسطين ، وهي الفلسفة الـمُعتمدة في المدارس الكهنوتية في الكاتدرائيات في العصور الوسطى ، خير من طرح في إطار فلسفي مسألة الإرادة الإلهية . راجع : ايغور كون ، **معجم علم الأخلاق** ، موسكو : دار التقدم ، 1983 ، ص .106-107.

6- يُـعتبر الفلاسفة الإغريق أكثر من تعرض وطرح المسائل الميتافيزيقية ، فالصروح الفلسفية والمنطقية التي شيدوها في هذا الميدان ستبقى مُميزة وفريدة ، ومن أغزر ما كُتب في هذا الميدان في تاريخ الإنسانية بأسره . راجـــع :

Brad inwood **, oxford studies in ancient philosophy – volume 35** , oxford : oxford university press , 2008 , p.120. *and* p.190. *and* p .197-198-199. *And* p.286. *and* p.295.

7-المنهج العلمي الذي اُعتمد في القارة الأوروبية منذ عصر النهضة ، انتهجه العلماء الأوروبيون في البحوث التي أجروها في البلدان البعيدة عن القارة الأوروبية مثل الهند وكثير من البلدان الإفريقية ... وغيرها ، وعاد R.harlan , بفوائد جمة على أوروبا من الناحية الزراعية والصحية ومجالات شتى أخرى . راجع : **medical and physical reseaeches , or original memoirs in medicine , surgery , physiology , zoology , and comparative anatomy** , Philadelphia : LYDIA R.baily , 1835 , p.9→18. *and* p.490→539.

8- د.برهان غليون و د.سمير أمين ، **ثقافة العولمة و عولمة الثقافة** ، بيروت – دمشق : دار الفكر المعاصر ودار الفكر ، 2000 ، ص 90.

9- فرانز ماريك ، **فلسفة الثورة العالمية** ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، 1972 ، ص .32.

10- روجيه غارودي ، **من أجل حوار الحضارات** ، باريس : مطبوعات دينويل ، 1978 ، ص .41.

11- العالم الانجليزي " فرانسيس بيكون francis bacon 1561-1626م " ، كان له تأثير كبير على المنهج العلمي المتبع في كافة العلوم في أوروبا فقد قادَ ما سُميّ بالثورة العلمية القائمة على الملاحظة والتجارب ، وكان من تأثيره الشديد على مناهج العلوم ، أن الكثير من المؤلفين وصفوا العلوم التي تتبنى المنهج التجريبي كالكيمياء والفيزياء وغيرهما ، بأنها " علوم بيكونية " . في هذا الصدد يكتبُ " ساهوترا ساركار " ، مايلي :

"… one focus has been on the nature and role of experiment during the rise of the natural sciences in the sixteenth and seventeenth centuries. Earlier accounts of this so-called scientific revolution emphasized the universalization of the mathematical method or the mechanization of the worldview as the decisive achievement. In contrast, the more recent studies of sixteenth-and seventeenth-century science stress the great significance of a new experimental practice and a new experimental, knowledge was at issue … an example is the transformation of the baconian science of heat into an experimental-mathematical thermodynamics during the first half of the nineteenth century. At about the same time, the interaction between (at first, mainly experimental) science and technolgy increased substantially… " . go to : Sahotra sarkar *and* Jessica pfeifer **, the philosophy of science - an encyclopedia** , london-new york : ROUTLEDGE pub , 2006 , p.268.

12- د.ملحم قربان ، **المنهجية السياسية** ، بيروت : دار الطليعة ، 1969 ، ص .361.

13- د.عبد الرزاق أحمد السنهوري ، **الوسيط في شرح القانون المدني الجديد – نظرية الالتزام بوجه عام – مصادر الالتزام** ، القاهرة : دار النشر للجامعات المصرية ، 1952 ، ص .32.

14- المصدر نفسه ، ص .400-401-402-403.

15- علم الأنثروبولوجيا أو " علم الإنسان " وُضعت أسسه وتطور في العصر الحديث ، ويُعتبر من أهم روافد فلسفة التنوير التي رسمت الملامح العامة للنظرة الجديدة الواجب تبنيها للإنسان ودوره في الطبيعة ، علاوة على تثبيت حقوقه المرتبطة بهذه الطبيعة ، كون أن الإنسان والحيوان والنبات هم أهم الكائنات الحية في الطبيعة ، ولهم قواسم مشتركة كثيرة . في هذا الصدد يكتبُ " بول توبينار " ، مايلي :

" ...nos connaissances,c'est à-dire ce que nous voulons ici faire connaître. Les classifications, non pas systématiques mais naturelles sont le tableau succinct des ressemblances ou caractères communs que présentent les animaux, d'ordre primaire, secondaire, tertiaire, etc … répondant aux groupes, plus ou moins circonscrits, appelés embranchements, classes, ordres, familles, genres, etc… , et des différences ou caractères particuliers qui distinguent chacune des divisions intrinsèques de ses groupes. Donner une place dans la classification à l'homme, c'est dresser le bilan de ses ressemblances et différences avec les diverses sortes d'animaux, conclure sur la distance qui le sépare des plus proches dans son groupe spécial et enfin lui assigner son rang hiérarchique . c'est ce que nous allons faire. l'homme, tout d'abord, est un vertébré parce que comme tous les animaux contenus dans cet embranchement, il possède un squelette intérieur dont la partie fondamentale est une suite de vertèbres … ". go to :

Paul Topinard **, l'anthropologie et la science sociale** , paris : Masson et C*ie* éditeurs (libraires de l'académie de médecine) , 1900 , p.6. *et* p.7→30.

16- الحداثة طالت الآداب والفنون بشدة في القارة الأوروبية ، فنشأت المدرسة الرومانسية الفرنسية بوجهها البرز " فيكتور هوغو "، التي تدعو لترسيخ حقوق الإنسان الطبيعية بشكل نهائي ، كتقدم تاريخي وتجاوزاً للمدرسة الكلاسيكية الانجليزية ووجهها الأبرز " وليام شكسبير " والتي تشوبها أفكار عن الإنسان من العصور الوسطى . في هذا الصدد تكتبُ " إميليا باردو " ما يلي :

" … poésie, le romantisme servit la cause de la réalité. Victor protesta en vain, décla rant que des abîmes infranchissables séparent la réalité dans l'art de la réalité dans la nature. Cette restriction calculée n'empêchera pas que le réalisme contemporain, et même le purr naturalisme, se fondent et s'appuient sur des

principes proclamés par l'école romantique. Go to : Emilia pardo bazan **, Le naturalisme** , paris : novelle libraire parisienne *et* E.giraud *et Cie* éditeurs , 1886 , p.18.

-17D.S.chambers , **Popes,cardinals and war, the military church in renaissance and early Modern europe** , London-new york :I.B.tauris.co.Ltd , 2006 , p.32.

18- ساهمت البرتغال بقسط كبير في توطيد أركان نمط الإنتاج الرأسمالي التجاري (الماركنتلي) في قارة أوروبا ، من خلال دورها المحوري كوسيط لنقل البضائع والمواد الأولية في القارة من خلال تجارتها العظيمة مع الشرق ، في الهند وسيرلانكا والصين والفيليبين واليابان ... وغيرها . فهي بالتالي ساهمت في تغيير نمط البناء الاجتماعي في القارة ، في الوقت الذي انهمكت فيه اسبانيا بجمع الذهب والفضة من الأمريكيتين ، متجاهلة تجارة الشرق . راجع:

Guillaume Thomas raynal , **Histoire philosophique et politique des établissemens et du commerce des européens dans les deux indes-TOME premier** , LAHAIE: Gosso Fils , 1774, p.60. *et* p.77. *et* p.78. *et* p.85. *et* p.92. *et* p.116

19- د.عبد الله التوم و د.عبد الرؤوف آدم ، **العولمة دراسة تحليلية نقدية** ، لندن : دار الورّاق ، 1999 ، ص 22-23.

20- منذ بدايات ظهور وتوسع أنماط الإنتاج الرأسمالية ، واكبت العلوم هذا النمو والتوسع لتـُوجد مع الزمن مؤسسة عملاقة ذات كينونة قائمة بذاتها ، ولكنها في تفاعل مُستمر مع متطلبات النمو الاقتصادي على وجه الخصوص ، ولذلك تطورت العلوم التطبيقية في أوروبا الحديثة في وقت أبكر جدا من سائر العلوم الاجتماعية . راجــع :

Charles sorel, **La science universelle,second volume** ,Paris: *Toussaint* quinet,1641,p.40→98.

21- موريس غورنييه ، **العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1982 ، ص 31.

22- هذه النظرية لها صدى واسع ، حيث تمّ طرحها من قبل الاتحاد البرلماني الدولي عام 1988م للمناقشة ، حيث قال عضوه " آلان تورين " مدير مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس ، ما يلي :

"… Les états européens modernes, à partir du XV*em* siècle , sont devenus des état de droit. Où dominait ce que max weber appelait l'autorité rationnelle légale ou la bureaucratie… la démocratisation s'est d'abord installée en Angleterre et en Holland et non pas en France ou en Espagne. Non seulement la modernisation accélérée est souvent associée à la mobilisation autoritaire des ressources, mais on a vu des régimes totalitaire s'installer dans des pays fortement modernisés et enfin il est artificiel d'appeler démocratiques ceux où l'état intervient le moins dans l'économie de marché …" . go to : Cherif bassiouni (rapporteur général) et alain youtaine *et* autres **, La démocratie, principes et réalisation ,** Genève : l'union interparlementaire , 1998 , p.93.

23- الحقيقة أن وجهة نظر ماكس فيبر التي ربط فيها الحداثة والتطور العلمي والليبرالية ، بالمسيحية البروتستنتية على وجــه الخصُــوص ، قد استقــاها من عدة آراء ومحاولات بحثية سبقته في القرن التاسع عشر . راجــع :

J.H.Serment **, Le libéralisme, ses principes – son but – ses preuves – christianisme et libéralisme – catholicisme et libéralisme – obstacles – moyens** , Paris-Genève : *Joël cherbulez* libraire-éditeur , 1860 , p.22.

24- لمزيد من شرح العلاقات المتشعبة بين المعارف والعلوم التطبيقية والإنسانية من جهة ، وسياسات الدول من جهة أخرى. راجـــع : جورج غورفيتش، **الأطر الاجتماعية للمعرفة** ، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1981 ، ص .109-110.

25- د.عبد الله التوم و د.عبد الرؤوف آدم ، المصدر السابق ، ص .207.

26- ميشال دوفيز ، **أوروبا و العالم في نهاية القرن الثامن عشر – الجزء الأول** ، بيروت : دار الحقيقة ، 1980 ، ص .32.

27- Thierry dargie , **économie et marches financiers** , paris : Groupe *Eyrolles*,2010,p.12.

28- فرانكلين ل.باومر ، **الفكر الأوروبي الحديث - الجزء الرابع** ، مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1989 ، ص .85.

29- كارل ماركس و فريدريك انجلز ، **مختارات- الجزء الرابع** ، موسكو : دار التقدم ، 1975 ، ص 64-65.

30- Peter j.bloom , **french colonial documentary , mythologies of humanitarianism,** minneapolis - london : university of Minnesota Press USA , 2008 , p.35→65.

31- عبد العزيز الكحلوت ، **التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء** ، ليبيا : منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، 1992 ، ص.52-53-54.

32- Mikael hörnqvist **, machiavelli and empire** , Cambridge university Press,2004,p.76.

33- في مجال خروج قسم كبير من فلاحين أوروبا من النسق الاقتصادي المحلي في داخل القارة الأوروبية بعد ترسخ الرأسمالية ، يكتب " هنرين بيرين " الأتي : " ... كل ما يوضع في الاعتبار أن جمهور الريف ، الذي يُمثل الغالبية من الناحية السكانية ، قد لعب دوراً سلبيا خالصاً في هذا الخصوص ، ولم يعد للفلاحين مكان في التسلسل الاجتماعي الطبقي " . راجـع : هنري بيرين ، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى – الحياة الاقتصادية و الاجتماعية** ، مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996 ، ص .86.

34- فتحي محمد أبو عيانة ، **جغرافيا السكان** ، بيروت : دار النهضة العربية ، 1986 ، ص.299.

35- دارين س.تومسون و دافيد ت.لويس ، **مشكلات السكان** ، القاهرة : المكتبة الأنجلو-المصرية ، 1969 ، ص .748.

36- بيير رنوفان ، **تاريخ العلاقات الدولية 1815-1914** ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، سنة النشر غير موجودة ، ص.808.

37- فتحي محمد أبو عيانة ، المصدر السابق ، ص.289.

38- دارين س.تومسون و دافيد ت.لويس ، المصدر السابق ـ ص.748.

39- د.عبد المالك خلف التميمي ، **الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي** ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1983 ، ص.12.

40- المصدر نفسه ، ص.16.

41- Carl cavanagh hodge **, encyclopedia of the age of imperialism** , Westport-london : Greenwood Press , 2008 , p.35-54.

42- د.محمد دويدار،**مبادئ الاقتصاد السياسي،الجزء الأول**، الإسكندرية:منشورات كلية الحقوق بجامعة الإسكندرية،1993،ص.105 ← 109.

43- ميشال دوفيز ، المصدر السابق ، ص.121.

44- د.محمد دويدار ، المصدر السابق ، ص .111.

-45Richard dargie , **a history of britain , the key events that have shaped britain from neolithic time to 21*st* century** , London : Arcturus Publishing Ltd , 2007 , p.94→106.

46- ميشال دوفيز ، المصدر السابق ، ص.127-128.

47- د.محمد محمود النيرب ، **المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، الجزء الأول** ، القاهرة :دار الثقافة الجديدة ، 1997 ، ص .33.

48- المصدر نفسه ، ص.35.

Frederick S.lane, american privacy **, the 400-year history of uor most contested right** , Boston : BeaconPress , 2009 , p.3 →8. -49

50- د.حسن عبد الفتاح أبو عليه،**تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية**، الرياض : دار المريخ ، 1987 ، ص .19.

51- ميشال دوفيز ، المصدر السابق ، ص .112.

-52 Thomas L.purvis , **colonial america to 1763** , New york : Facts on file , 1999 , p .17.

-53Valérie charolles , **le libéralisme contre le capitalisme** , Paris : Libraire arthème FAYARD , 2006 , p.27.

-54Robert J.young , **le colonialisme et la machine désirante** , London-new york : *ROUTLEDGE* , 1995 , p.9-10. *and* p.15.